مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أعمال الرسل ٢: ١–١١)

لمَّا حلَّ يومُ الخمسين كان الرسلُ كلُّهم معاً في مكانٍ واحد* فحدث بغتةً صوتٌ من السماءِ كصوتِ ريحٍ شديدةٍ تَعصِفُ وملأَ كلَّ البيت الذي كانوا جالسينَ فيه* وظهرت لهم ألسِنةٌ متقسِّمةٌ كأنَّها من نارٍ فاستقرَّت على كلِّ واحدٍ منهم* فامتلأوا كلُّهم من الروحِ القدسِ وطفقوا يتكلَّمون بلُغاتٍ أخرى كما أعطاهم الروحُ أن ينطِقوا* وكان في أورشليمَ رجالٌ يهودٌ أتقياءُ من كلِّ أمَّةٍ تحت السماءِ* فلمَّا صار هذا الصوتُ اجتمع الجمهورُ فتحيَّروا لأنَّ كلَّ واحدٍ كان يسمعُهم ينطِقون بلغتِه* فدهِشوا جميعُهم وتعجَّبوا قائلينَ بعضُهم لبعضٍ أليس هؤلاءِ المتكلِّمون كلُّهم جليليين* فكيف نسمعُ كلٌّ منَّا لغته التي وُلد فيها* نحن الفرتيين والماديينَ والعيلاميينَ وسكَّان ما بين النهرين واليهودية

الروح المعزي وحياتنا

-

«تركوني أنا ينبوعِ المياه الحي، واحتفروا لأنفسهم آباراً، آباراً مشقّقة لا تمسك الماء» (أرمياء ٢: ١٣).

لعل إحدى أبرز سمات عصرنا أن الإنسان يطلب التعزية والسلوى في كل شيء ولا يجدهما. يصرف المال هنا وثمّة على أسباب اللهو، ولا يوفّر سبيلاً لاقتناء شيء من التسلية، لكنه يعود ليقع في فراغ وجودي يهيمن على كيانه ويأسره في الوحدة والإحباط. ذلك مع أن حياتنا تطوّرت وكثرت فيها أساليب الترويح عن النفس والمشاغل الشتى التي تملأ وقت الناس فلا تترك لهم لحظة يتنفسون فيها. إلاّ أن الإنسان لا يلبث أن يقع في فراغ يبرز له عبثية معظم ما نصنعه في حياتنا.

والأمر الآخر الذي لا يخفى على أنظار أحد أن الشر في الأرض هو في حركة تزايد متصاعد. حدّة العنف الفردي والجماعي الذي نشهده في ايامنا لم يكن لها مثيل في تاريخ البشرية المنصرم. كذلك طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الناس المنفسدة بالطابع الأناني الذي يسيطر عليها. منطق «المصلحة» السائد في نوع من «الديبلوماسية» غير الصادقة بين البشر يزيد على عبثية حياتنا ويؤكّد أن تطوّر العلوم، وانفتاح الثقافات، وشيوع وسائل التواصل السريع والبعيد المدى، أخفقت في أن تقود الإنسانية إلى سلامة العيش وعافية المجتمع.

فما الذي ينقصنا؟ ولما هذا الفراغ الذي يبرز ويسيطر على حياتنا؟ أين الثغرة الوجودية التي لم نعد نلحظها فتودي بنا بالتالي إلى هذا الفشل؟

العدد ٢٠١٢/٢٣

الأحد ٣ حزيران

أحد العنصرة

تذكار القديس الشهيد لوكليانوس

ما يعلّمنا إيّاه الإنجيل والكنيسة أن الإنسان لا يجد غاية لحياته إلا في اقتناء نعمة الروح القدس. والروح «المعزّي»، الذي وعد به الرب تلاميذه قبل مضيّه إلى الآلام الخلاصيّة، هو وحده قادر أن يعطي معنىً حقيقيًّا لحياة الإنسان.

«... وأنا أطلب من الآب فيُعطيكم معزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحقِّ الذي لا يستطيع العالم أن يقبلَه لأنَّه لا يراه ولا يعرفه، وأمَّا أنتم فتعرفونه لأنَّه ماكثٌ معكم ويكون فيكم. لا أترككم يتامى. إني آتي إليكم» (يو ١٤: ١٦–١٨).

هذا الروح يوافي ليرفع الإنسان

وكبادوكية وبُنطُس وآسِيَة* وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبية عند القيْروان والرومانيين المستوطنين* واليهودَ والدخلاء والكريتيين والعرب نسمعهم ينطِقون بألسنتنا بعظائِم الله.

الإنجيل

(يوحنا ٧: ٣٧-٥٢)

في اليوم الآخر العظيم من العيد كان يسوعُ واقفاً فصاح قائلاً إن عطِشَ أحدٌ فليأتِ إليَّ ويشرَب* مَن آمن بي فكما قال الكتابُ ستجري من بطنه أنهارُ ماءٍ حيٍّ* (إنَّما قال هذا عن الروحِ الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه إذ لم يكنِ الروحَ القدسَ بعدُ. لأنَّ يسوعَ لم يكن بعدُ قد مُجِّدَ)* فكثيرون من الجمعِ لمَّا سمعوا كلامَهُ قالوا هذا بالحقيقةِ هو النبيُّ. وقال آخرون هذا هو المسيح* وآخرون قالوا ألعلَّ المسيحَ من الجليلِ يأتي* ألم يقل الكتابُ إنَّه من نسلِ داودَ من بيتَ لحمَ القريةِ حيث كان داودُ يأتي المسيحُ* فحدث شقاقٌ بين الجمع من أجلِه* وكان قومٌ منهم يريدون أن يُمسِكوهُ ولكن لم يُلْقِ أحدٌ عليه يداً* فجاء الخُدَّامُ إلى رؤساءِ الكهنةِ والفريسيين فقال هؤلاء

من عمق غربته على الأرض ويجعله ابناً لله. هو روح التبني الذي يحقق بنوّتنا لله الآب، التي أسّسها المسيح ابن الله الوحيد حين صار إنساناً مثلنا. الروح يجعلنا أبناءً لله، وبهذا يكمن معنى وجودنا وعزاؤنا الأعمق.

هذه النعمة ننالها في سر الميرون، لكنها لا تفعل فينا إن لم نسعَ إلى استثمارها في «أثمار تليق بالتوبة» (لو ٣: ٨).

بالروح القدس يحيا الإنسان إلهيًّا. يتلقف حياة الآب وحياة ابنه وكلمته، فيصير الشاهد في الخليقة على حقيقة الله. يصير إناءً مختاراً للروح القدس يسكب في بيئته طيب النعمة ويغنيها من «كنز الصالحات» الكامن فيه. يتعزّى الإنسان فيعزّي الخليقة من حوله. يمتلئ نوراً فيصير السراج المنير الذي يُرفع «على المنارة ليضيء لجميع الجالسين في البيت» (متى ٥: ١٥). قداسة الإنسان تملأ بالروح المعزي «المالئ الكل» كل فراغ ونقص في واقع الخليقة ناتج عن الخطيئة.

لكن كل ذلك يتطلّب سعياً دؤوباً وتعبيراً صادقاً من عمق نفس الإنسان عن شوقه إلى الله وتوقه إلى عزائه. ما يعلّمنا إيّاه قديسو الكنيسة وآباؤها، من خلال زهدهم ونسكهم وبذلهم لذاتهم، أن منهاج اقتبال الروح المعزّي واقتنائه في القلب أساسه الثقة الكلّية بالله. هذه الثقة التي تؤول بالإنسان إلى عطاء كبير وتضحية كاملة. حين نحب الآخرين ونضحّي من أجلهم توافينا نعمة المعزّي.

لعل الناس في زماننا فقدوا المعنى العميق للتعزية والفرح لأنهم خسروا ذهنية التضحية وتفضيل الآخر على النفس، اللذين بهما تكون المحبّة وتُستدعى نعمة المعزّي.

دعوتنا اليوم أن نعود إلى الله بتوبة صادقة، ونلتصق بتعليم إنجيله، علّنا إذا ما بلغنا المحبّة والفرح والنور، تشبع نفوسنا من تعزية الرب فنكتفي بالمسيح الإله دون سواه وبنعمة روحه القدوس.

خدمة الذبيحة

بعد رفع الكاهن الجزء المخصص للكلية القداسة مريم، ووضعه إلى يمين الحمل الإلهي، يرفع من القربانة جزءاً أصغر، يضعه إلى يسار الحمل وهو يقول «لإكرام رئيسَيْ القوات السماوية وسائر الملائكة القديسين».

لما حان أوان خلاص جنسنا، أُعلن سر التدبير الإلهي أولاً للملائكة القديسين ومنهم بلغت البشارة إلينا. فرئيس الملائكة جبرائيل هو مَن بشّر زكريا الشيخ بمولد القديس يوحنا المعمدان الذي سوف يكون ملاكاً أمام وجه المسيح الرب. وجبرائيل هو أيضاً مَن حمل إلى الفتاة الطاهرة مريم خبر حبلها الإلهي، ولما اضطرب يوسف خطيبها أتاه ملاك يشدّده مؤكداً له ألوهية حبل خطيبته العذراء وأن هذا المتجسّد في أحشائها هو المسيح الآتي لخلاص العالم. وفي بيت لحم، أتى ملاك إلى الرعاة مبشراً إياهم بولادة المسيح، ومعه ظهر في السماء جمهور من الملائكة وهم يسبحون قائلين: «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرَّة». ولما اتت النساء القديسات إلى قبر السيد ليطيّبن الجسد الراقد، استقبلهن ملاكان بشّراهن بقيامة الرب. كذلك هنا، أثناء إتمام الذبيحة المقدسة،

لـهـم لِـمَ لم تـأتـوا بـه* فأجاب الخدَّامُ لم يتكلَّم قطُّ إنسـانٌ هـكـذا مـثـلَ هـذا الإنسـان* فـأجـابـهـم الفريسيون ألعلَّكم أنتم أيضاً قد ضَـلَـلْتُم* هل أحدٌ من الرؤساءِ أو من الفريسيين آمن به* أمَّا هؤلاء الجمعُ الذين لا يعرفون الناموسَ فهم ملعونون* فقال لهم نيقوديمُس الذي كان قد جاء إليه ليلاً وهو واحدٌ منهم* ألعلَّ ناموسَنا يدينُ إنساناً إن لم يسمع منه أولاً ويعلَم ما فعل* أجابوا وقالوا له ألعلَّكَ أنت أيضاً من الجليل. إبحث وانظر إنَّه لم يَقُم نبيٌّ من الجليل* ثم كلَّمَهم أيضاً يسوعُ قائلاً أنا هو نورُ العالَم مَن يتبَعني فلا يمشي في الظلام بل يكونُ له نورُ الحياة.

تأمل

لا يستطيع أحد عند ذكر الروح القدس أن يتصور طبيعةً محدودة، خاضعةً للتغيّرات والتقلبات، وشبيهة في كل شيء بالخليقة. لكن عليه أن يرتقي بعقله إلى العلى، فيفكّر حتماً بطبيعة عاقلة، لا حدّ لقوّتها ولا قياس لعظمتها، تتخطّى حدود الزمان والمكان، وهي تفيض خيراتها وحسناتها دون بخل أن نقصان.

نحو هذا الروح يتّجه الملائكة حاضرون يخدمون السر الإلهي الحاصل هنا.

بعدها يقتطع الكاهن ثمانية أجزاء مماثلة تلي جزء الملائكة، هي (وبهذا الترتيب) لإكرام السابق المجيد يوحنا المعمدان وسائر الأنبياء، ثم الرسل القديسين، فآبائنا معلّمي المسكونة وسائر رؤساء الكهنة القديسين، فالشهداء والشهيدات، فآبائنا وأمهاتنا النساك والناسكات، فالقديسين الأطباء العادمي الفضة، فجدّي المسيح يواكيم وحنة ومعهما القديسين يوسف خطيب العذراء وسمعان القابل الإله والقديس شفيع الكنيسة والقديس الذي يُقام تذكاره في ذلك اليوم. ثم جزء أخير للقديس كاتب خدمة القداس الإلهي المقام في ذلك اليوم. هذه الأجزاء الثمانية مع الجزء المختص برؤساء الملائكة تصطفّ ثلاثة بثلاثة إلى يسار الحمل الإلهي فتتمثّل بها طغمات أو فئات القديسين كما رتّبتها الكنيسة المقدسة. فالقداس الإلهي هو، بامتياز، حيث تظهر وتعاش «شركة القديسين»، أي اتحاد القديسين جميعاً، الذين تمجّدوا والذين هم بعد في الجهاد. فالذي يجمعهم ويوحّدهم ويقدّسهم هو هذا الحمل الإلهي عينه.

بالأجزاء المخصصة لإكرام القديسين، يكون قد اكتمل شمل «الكنيسة الظافرة»، أي الذين أتمّوا السعي وصاروا مستوطني السماء، شفعاء لنا وسنداً لجهادنا، فنكون وإياهم، في القداس الإلهي، في «توافق وتجانس واحد» كما يقول القديس ديونيسيوس الأريوباغي.

هنا تنتقل الخدمة إلى مؤمني الكنيسة الذين ما زالوا بعد في الجهاد، والذين رقدوا على الإيمان القويم وهم على رجاء القيامة. يرفع الكاهن جزءاً لتذكار جميع الأساقفة الأرثوذكسيين، وآخر على اسم مطران الأبرشية (والمطران الذي سامه)، ثم جزءاً للكهنة والشمامسة والرهبان وسائر «الذين دعوتهم بتحننك إلى شركتك أيها السيد الكلي صلاحه». هذه الأجزاء يضعها الكاهن تحت الحمل الإلهي، ثم يشرع بنحت أجزاء صغيرة ذاكراً مَن شاء من الأحياء ثم من الراقدين، لا سيما وكلاء الكنيسة وخدامها ومرتليها والمحسنين إليها، والذين قُدمت أسماؤهم مع قرابين أو تقدمات المؤمنين. أبونا البار أمفيلوخيوس الذي من جزيرة بطمس، وهو من قديسينا المعاصرين الذين لم تعلن قداستهم رسمياً بعد (رقد سنة ١٩٧١)، ما فتئ يحث المؤمنين على الإتيان بأسماء أخصائهم مع القرابين، أحياء كانوا أم راقدين، لكي يذكرهم أثناء تهيئة الذبيحة الإلهية. وعندما سأله أحدهم عن هذا الإصرار، أسرَّ له أنه يرى ملاكاً يقف عن يمينه، يحمل الأسماء هذه ويرفعها إلى المسيح الإله ليس أحد مستثنى من هذه النعمة. فهي تشدّد المؤمن في جهاده، تنشط المتهاون، تهدي الضال، تزكي توبة التائب، وحتى مَن كان عائشاً في الخطيئة منغمساً فيها. فالتقدمة المرفوعة عنه تقدَّم على رجاء توبته أو حتى التخفيف من دينونته، بحسب رحمة المسيح وحده، كما يقول القديس سمعان التسالونيكي. تجدر الإشارة هنا إلى أن النعمة التي ينالها الأحياء المذكورون في الذبيحة الإلهية ينالها أيضاً الراقدون. لهذا يقول أبونا القديس يوحنا الذهبي الفم: «لا تتعبوا من مساعدة الراقدين،

الراغبون في نعمة تقديس نفوسهم والتائقون إلى العيش في التقوى والبرّ، لأنّ نسائم الروح القدس تهبّ عليهم، فيتابعون السير نحو غايتهم الطبيعية. فهو مكمل الجميع ولا ينقصه شيء البتّة، وهو حيّ ولا يحتاج إلى عون وسند لأنه موزّع الحياة. هو لا يزداد نمواً لأنه كامل بذاته، وثابت في جوهره، وحاضر في كلّ مكان، هو ينبوع التقديس، ونور ينير كلّ عقل لاكتشاف الحقيقة، هو لا يُدنى منه بسبب طبيعته، إنما هو قريب إلى الفهم بسبب صلاحه، هو مالئ كل شيء بقوّته، ولا يحظى بشركته إلاّ المستحقون وحدهم إذ توزيعه لا يكون بمقياس واحد، بل على قدر الإيمان. الروح هو بسيط في جوهره، إنما يظهر قدرته بتنوّع المواهب، هو حاضر كلّه في كل إنسان، وموجود كلّه في كل مكان. هو يوزع دون قسمة، ويعطى كاملاً لكل إنسان. وهو، كشعاع الشمس، ينير الأرض والبحر ويمتزج بالهواء. يملأ الجميع نعمة ويبقى دون نقصان. والذين يتقبّلونه ينالونه حسب قدرة استيعابهم وطاقتهم، لا على قدر طاقته هو.

القديس باسيليوس الكبير

قدّموا لأجلهم قرابين، أسألوا أن يُتضرّع لأجلهم، فتنال نفوسهم ربحاً كبيراً، لأن القابل قرابيننا وتضرّعاتنا هو المسيح المخلّص، فادي الخليقة بأسرها». بعد أن يفرغ الكاهن من ذكر الأسماء، يرفع جزءاً عن نفسه وهو يقول: «أذكرني يا رب أنا أيضاً عبدك الخاطئ غير المستحق واغفر لي ذنوبي الطوعية والكرهية».

بهذا المشهد على الصينية المقدسة تكتمل صورة التئامنا حول المسيح الإله. بمعنى آخر، إنها أيقونة كنيستنا المقدسة. المسيح الذبيح في وسط الصينية التي تمثل الكون بأسره، ومن حوله العذراء الكلية القداسة والملائكة والقديسين، وأبناء الكنيسة أحياء وراقدين. محور الكل وجامعهم وجاذبهم إليه هو المسيح. وكما كل ما في كنيستنا، هذه «الأيقونة» ليست مجرد تصوير تشبيهي بل واقعاً يحدث الآن، عبر فعل آني مشترك اشتراكاً فعلياً وكاملاً في اصله الأزلي، أي سر الفداء القائم دوماً في السماء.

في نهاية القداس الإلهي، وبعد انتهائه من مناولة المؤمنين، يُفرغ الكاهن الأجزاء كلها عن الصينية في الكأس المقدّسة وهو يقول: «إغسل يا رب بدمك الكريم خطايا عبيدك المذكورين ههنا، بشفاعات الكلية القداسة والدتك وجميع قديسيك». هذه هي أبهى صورة للتوافق والتجانس الواحد الذي اشرنا إليه أعلاه: من أشقى البشر إلى أطهرهم، يغسلهم هذا الدم الإلهي الواحد ويتغلغل فيهم ويحييهم ويؤلّههم، وهو نفسه أمس واليوم وغداً، على ما يقول القديس بولس الرسول.

في الكنيسة

+ كلنا جسدٌ واحد، رأسه المسيح. كلنا معاً نكوّن الكنيسة. ديانتنا عندها هذه العظمة أنها توحّد العالم عقلياً. قوّة الصلاة هائلة جداً، خصوصاً عندما يقيمها كثيرون في مجموعة صلاة توحّد الكلّ.

+ ديانتنا ديانة الديانات. هي إعلان إلهي، حقيقية. الديانات الأخرى بشرية فارغة، لا تعرف عظمة الثالوث القدوس. هي لا تعرف الهدف الأسمى، أننا آلهة، مخلوقين على صورة الثالوث القدوس، وأننا نصير واحداً معه. ديانتنا ديانة حبّ، عشق، غيرة، جنون وتوق إلى الله.

+ فليكن هدفنا ما يلي: محبّة الكنيسة والقريب. هذه الوحدة في المسيح والكنيسة هي السماء على الأرض. محبّة المسيح هي أيضاً محبّة القريب، محبّة كلّ واحد بمن فيهم الأعداء.

+ عندما نحبّ المسيح، من خلال النعمة الإلهية، نصير في حالة أخرى جميلة جداً. بالنسبة إلينا لم يعد هناك خوف، أو موت، أو شيطان، أو جهنم. كلّ هذه المخاوف هي لغير المسيحيين. بالنسبة إلينا، عندما نصل إلى حالة الفرح والحب والعبادة من دون خوف، نصل إلى ما قاله الرسول بولس: «لا أعود أنا أحيا بل المسيح يحيا فيّ» (غلا ٢: ٢٠).

البار بورفيريوس الرائي

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb